الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس

---

(١) النظام السياسى والادارى .

(٢) القضـاء .

(٣) الجيش والبحـرية .

(٤) الحضـارة المـادية .

(٥) منشـئات بيـبرس .

(٦) الحيـاة العلميـة والأدبيـة .

(٧) الحـالة الاجتماعيـة .

الباب الرابع

حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس

١ — النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية، فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المماليك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشيره بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شيء اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته[1] . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقد كان ملكيا وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا ينالها إلا أقوى الأمراء نفوذا وأكثرهم أنصارا وأشدّهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثة العرش فى أسرته[2] ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم، وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريما له فاستبشر بذلك

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 30.

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيدمر الحلى . ثم قرئ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء[٢] وقد جاء فيه :

"الحمد لله منمى الغروس ومبهج النفوس ... ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده ... ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفترسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار . أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره ... جعل الله مطلع سعده بالاشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع الدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها ... وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام ... ومن يسكنها من حقير وجليل ... وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسل وهذا يسأل ، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق ، ولا غصن قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمتد له الأوراق، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس . فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور

(١) يفهم مما ذكره النويرى ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٦٠ ، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء فى صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعة للملك السعيد ؛ ولما تم له ذلك جدد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... والله لا يعدمنا منه إشفاقا وبرا ويجعله أبدا للأمة سندا وذخرا[١] " .

على أن نظام وراثة العرش لم يكن مألوفا عند المماليك ؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والحذق فى تدبير المؤامرات . وفى أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخلعه أتابكه[٢] كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك[٣] . وقد فطن بيبرس لذلك عند ما أحس بالموت فكتب وصية لابنه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها : " إنك صبى وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحدا فى هذا وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك[٤] " .

وقد تحقق ما كان يخشاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنه الملك السعيد أخذ الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطر أخيرا إلى النزول عن العرش بعد أن ظل فى الحكم أكثر من سنتين[٥] .

ولما نزل الملك السعيد عن العرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال " أنا ما خلعت الملك السعيد طمعا فى السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر[٦] " .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقه ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١٨ وقد تحول هذا اللقب الى لقب عسكرى فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيوش .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧ (٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٤٠ أ .

(٥) Sir William Muir. Op. Cit. p. 33.

(٦) المقريزى : السلوك ص ٦٥٦

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر احترام مبدأ وراثة العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التى أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكونون أغلبية الجيش، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة. وقد لقى قوله قبولا لدى الأمراء فولواسيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكا له؛ فقبض قلاوون على زمام الأمور فى البلاد وانتهز فرصة صغر سنّ سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلعه ليحل محله فى عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستمال إلى جانبه المماليك الصالحية موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الاقطاعات وولاهم بعض الولايات.

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدّث معهم فى صغر سنّ الملك العادل وقال لهم: "قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل" فاتفقوا على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطانا على مصر.(١)

وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون. وهذا يثبت لنا أن مبدأ وراثة العرش لم يكن مقبولا لدى أمراء المماليك. فقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون مؤهلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع.

وقد استعان بيبرس فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما أنه أحيى وظيفة نائب السلطان التى ابتدعوها فى عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته فى أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته. فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه فى توزيع الاقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة ولاتساع سلطته سمى «كافل الممالك والسلطان الثانى»(٢).

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

كذلك اتخذ بيبرس وزيرا له ، وكان يستشيره فى أمور الدولة ، كما كان واسطة بينه وبين الرعية ، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره وإسداء النصح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة . غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه[١] ولتدخله فى تعيين كبار موظفى الدولة . وقد تولى الوزارة فى عهده الصاحب بهاء الدين بن حنا . وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التى خاطبه بها محيى الدين بن عبد الظاهر عند ما كان مع بيبرس فى قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ، فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة[٢] .

وكان يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

وقد ظلت الوزارة قائمة فى ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على « ناظر الدولة » فى إدارة شئون البلاد . وكانت رتبته تلى رتبة الوزارة ويعاونه فى عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين ولهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة وتعيين صغار الموظفين[٣] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير ، كما استحدث وظيفة «ناظر الخاصة» وكانت مهمة القائم بأعبائها فى أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان ، غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقربه من السلطان فأصبح يتدخل فى أموره الخاصة[٤] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣ (٢) القلقشندى : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

مما تقدّم نرى كيف أن سلاطين المماليك فى ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم فى إدارة شئون الدولة كما كانت الحال فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ؛ فأضعفوا أوّلا من نفوذهم ثم آستبدلوا بهم بعض كبار الموظفين ؛ فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاصة » يقوم بمهام الوزارة . ولعلهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال فى أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمثول بين يديه مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم تقف مهمته عند هذا الحدّ بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه ؛ ثم أخذت سلطته تتسع تدريجيا حتى أصبح يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر[(١)] طبقا لأحكام الياسة التى وضعها جنكزخان[(٢)] .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب فى المكانة وهم " الاستادار " و" الدوادار " و" الأمير جاندار " . وكان يعهد إلى الأوّل إدارة البيوت السلطانية ،

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم مصر واعتناقهم الدين الاسلامى لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ؛ وقد أظهروا رغبتهم فى العودة الى اتباعها . وفى ذلك يقول المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢١ " ... ... واحتاجوا (المغول) فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسة ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا فى الأصل) والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة " .

(٢) كان جنكزخان قد وضع بعض تشريعات للمغول وأثبتها فى كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ماجاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يدخل بين اثنين يتخاصمان ويعين أحدهما على الآخر ، ومن يبول فى الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة ويخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أو يكسوه بغير إذنهم ، ومن يجد عبدا هاربا أو أسيرا ولا يردّه ؛ ومن يقع قوسه أثناء القتال ، ومن يتردّد من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . وفضلا عن ذلك فانه قرر ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ؛ وألزم أفراد رعيته باحترام جميع الملل والمذاهب . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

ويبلغ الثانى الرسائل للسلطان ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها . أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه فى استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها[١] .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها "رأس نوبة الأمراء" و "أمير المجلس" و "أمير السلاح" . وكان يتولى الأول الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بمحاكمة المماليك السلطانية . أما "أمير المجلس" فكانت مهمته حراسة السلطان ، وازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه . واختص "أمير السلاح" بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدات الحرب[٢] .

وكان للسلطان ولاة ينوبون عنه فى إدارة شئون الدولة المصرية ، ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية . وكانت الأسكندرية[٣] أعظم الولايات شأنا فى ذلك العصر لأهميتها التجارية ، وكذلك ثغر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تمر به تجارة الشرق . وكان الوجه القبلى مقسما إلى عدة ولايات ، ومن أهم ولاياته : قوص والأشمونين والبهنسا والجيزة . أما الوجه البحرى فأهم ولاياته : بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمنهور وقليوب ودمياط[٤] .

ومن الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وظيفة «الولاية» ، وهى تقابل ما يعرف فى العصر الاسلامى الأول بالشرطة[٥] . ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الأعمال الادارية التى تكفل سلامة الجمهور .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥

(٣) كان يطلق على الأسكندرية فى عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية ، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية فى أيام الظاهر برقوق . وكان فى عهده ثلاث نيابات : نيابة الأسكندرية ، ونيابة الوجه القبلى ، ونيابة الوجه البحرى . القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٥) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

وكان يقوم بأعباء هـذه الوظيفة فى عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشاكل التى تحدث بين سكانها ، ويعهـد الى الثانى بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط . أما الثالث فكان يلى شئون القرافة[1]. ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة فى زيارات القبور وخاصـة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعبث بهـا اللصوص . وإلا فليس من المعقول أن يتساوى والى القرافة مع والى كل من الفسطاط والقاهرة ان لم يكن فى القرافة عمل يساوى عملهما .

وكان "صاحب العسس" بالقاهرة يتولى الاشراف على مطافئ الحريق بها، فيجلس بعد صلاة العشاء أحيانا بمحطة المطافئ التى اتخذها المماليك بسوق الجملون الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية . وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشـية حدوث الحريق بالليل فيبادرون الى إطفائه[2] .

ديوان الإنشاء — وجه بيبرس عنايتـه إلى ديوان الإنشـاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التى عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم .

وكان هـذا الديوان يتكون من طبقتين من الكتاب ؛ تعرف الطبقـة الأولى منهم بكتاب الدست[3]، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان ، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل . وكانوا فى عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدرا محيي الدين بن عبد الظاهر . أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج[4] ؛ وهؤلاء كانوا يقـومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشـاء وكتاب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ (٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٣) سموا بذلك لجلوسهم للكتابة بين يدى السلطان . (٤) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم لكتابتهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال .

الدست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم[١] . وكان عددهم يزداد كلما ازداد عدد كتاب الدست .

وقد تولى رئاسة ديوان الانشاء فى أيام الملك الظاهر فخر الدين بن لقمان[٢] ، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب وامتازوا بالمقدرة فى فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها[٣] .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب الى ذلك الوقت بصاحب ديوان الانشاء؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولى الديوان القاضى فتح الدين بن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون ؛ فلقب بكاتب السر ، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولى ديوان الانشاء[٤] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان فى ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية فى الوقت الحاضر، إذ كانت ترد اليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التى كان بينها وبين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التى يرسلها السلطان الى حلفائه . وقد ازداد نشاطه فى أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التى تبودلت بينه وبين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس الى منفعة البريد فوضع له نظاما ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البرى والجوى . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل[٥] ؛ ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى أنحاء

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣١ (٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٦ (٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ (٥) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد إحداها إلى قوص وآخر إلى عيذاب وثالث إلى الاسكندرية ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٣

امبراطوريته ، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاة الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد فى عهده يرد على مصر مرتين فى الأسبوع ؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالا ضخمة فى سبيل ترتيبه (١) .

وقد زود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد (٢) ، وأعدّ بكل منها خيولا لا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطانى (٣) .

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء ؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد (٤) بالديوان ، فإذا خرج بريدى الى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه فى ذهابه وإيابه (٥) .

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفاية والذكاء لابلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ؛ وكانت لهم مكانة محترمة .

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادى فى إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل ؛ وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد البرى ، لكنها تزيد عنها فى المسافة . فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها (٦) .

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاجل ؛ فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدّمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ — ٤٤٧ (٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ (٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨

(٤) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة" . وعلى الوجه الآخر : "عز لمولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين" .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

فى ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى . وقد جرت العادة أيضا ألا يطلق الحمام فى الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى[1] .

وكان حمام البريد السلطانى يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة ؛ فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه[2] . وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء امبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٢ — القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة ؛ فتولى بنفسه النظر فى المظالم وأقام لذلك دار العدل التى كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل فى قضايا رعيته فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد ، وكبار موظفيه الماليين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء[3] .

وكان قاضى القضاة فى مصر عند ما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى ، فعزله الملك الظاهر فى سنة ٦٥٩ هـ ، وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ص ٤٣ — ٤٤

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 246.

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

عبد الوهاب بن بنت الأعز[1]، وكتب له بذلك تقليدا جاء فيه "... رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه ... أن نفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسنا ... فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفا ... وليول من القضاة من يحيي من الحق سننا ويميت (ويمت فى الأصل) من الباطل بدعا ... وليتفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم. ولا يترك منهم إلا شاهدا كان على (المعايب) غائبا أو متورعا ... وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا ... ورعينا بك حق الرعية، فلا تخل أمورهم من مراعاتها. وأمض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعد القعود ... وقد قررنا لك من الجامكية والجراية ما كان مقررا لمن تقدمك، وهو فى كل شهر أربعون دينارا وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين[2] ..."

على أن تاج الدين لم يظل منفردا بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه السنة برهان الدين السنجارى. وصار الأول مختصا بقضاء القاهرة والوجه البحرى؛ أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى. ولم يمض على ذلك وقت

---

(١) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية. ومات أبوه وهو صغير فى ذى القعدة سنة ٦١٢ هـ؛ فربى فى حجر جدته لأمه الصاحب الأعز فخر الدين مقدام. ولما بلغ أشده درس القرآن والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية فبهر فيه لفرط ذكائه؛ فولاه الملك الكامل شاهدا لبيت المال وظل فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظر الدواوين، ثم تولى قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى. ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين الى القضاء وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ، ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة، وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس الى القضاء فى عاشر جمادى الأول سنة ٦٥٩ هـ، وظل يتولى القضاء فى مصر الى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥ هـ. ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ، وقلد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها[١].

وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهريا على النظام القضائى بمصر؛ فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[٢]. ويرجع السبب فى ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده فى أحكامه؛ فقد حدث أن استشاره السلطان فى قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضى بدر الدين السنجارى، وأن ورثته ادّعوا بعد وفاته أنه موقوف. فأجاب القاضى بأنه إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع، فقال السلطان: فإن عجزوا عن الثمن؟ قال: يظل الوقف على أصله؛ فامتعض بيبرس منه. وفى هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال: يا مولانا السلطان! سألت هذا القاضى أن يسلم إلىّ المال الذى تحت يده من الوقف لأنفقه فى فقراء المدينة فلم يفعل؛ فسأل السلطان القاضى عن ذلك، فقال القاضى: صدق هذا الرجل؛ أنا لا أعرفه ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه... فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه. فقال السلطان: تخرجه من عنقك وتجعله فى عنق لا تسلم المال إلا لمن نختاره ونرضاه. ثم تقدم بعض الأمراء وقال: شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته؛ فسأل السلطان القاضى عن ذلك؟ فقال: ما شهد أحد عندى حتى أثبته، فقال الأمير إذا لم تسمع قولى فمن تريد؟. قال السلطان: لم لم تسمع قوله؟. فقال: لا حاجة فى ذكر ذلك. فقام الأمير جمال الدين أيدغدى وقال: نحن نترك مذهب الشافعى لك ويولى السلطان من كل مذهب قاض؛ فوافقه بيبرس على ذلك وأقرّ القاضى

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥ و٤٧٢؛ السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥؛ Stanley Lane-Poole, p. 274.

تاج الدين بن بنت الأعز فى قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكى قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عمادالدين ابراهيم القدسى قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليدا وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بأنحاء الديار المصرية (١)، وأضاف إلى اختصاصات القاضى تاج الدين النظر فى ديوان الأحباس وأموال الأيتام والورثة. وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضى ضعفت بعض الشىء على أثر هذا النظام الجديد الذى وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يتردّدون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحد منهم فى مجلس السلطان غيره (٢).

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاء قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر. وكانت مرتبته فى الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب (٣).

٣ — الجيش والبحرية

تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة فى عهد بيبرس عما كانت عليه فى أيام الدولة الأيوبية. فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا من الأكراد ظل عدّة الدولة الأيوبية (٤) حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فاقتنى عددا كبيرا من المماليك كان معظمهم من الأتراك (٥). ويرجع السبب فى ذلك إلى المنافسة التى قامت على الملك بينه وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أولى منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك، فتفرّق عنه جيشه الكردى، ولم يبق

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١١٥ — ١١٧؛ المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٨ — ٥٤٠ (٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 243

معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد، فاستكثر من شرائهم[1]، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات، كما أنشأ بها جامعا وستين برجا . وعندما تم بناؤها انتقل إليها بحريمه وأهله، واتخذها دارا للملك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت دولة بنى أيوب وتولى المعز أيبك سلطنة مصر، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل؛ وظل الحال على ذلك حتى ولى الظاهر بيبرس عرش مصر، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولما تم بناؤها أسكن الأمراء فى أبراجها[2] .

ولما ولى المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ — ٦٨٩ هـ) [١٢٨٠ — ١٢٩٠ م]، نقل المماليك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه فى كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلا ولا نهارا إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ — ١٢٩٣ م]، فسمح لهم بالخروج منها نهارا ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقرا للمماليك السلطانية، وسمح لسائر المماليك بالخروج مرة فى الأسبوع إلى الحمام؛ فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدام ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار[3] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨١؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠٣

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدته وقت الحروب؛ فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التى كانت تتطلبها البلاد فى ذلك العصر وهى محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول، كما عنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سنّ البلوغ، ثم يمرنوا بعد ذلك على الأعمال الحربية، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان[1].

وكان هذا الجيش يتكون من المماليك السلطانية وجنود الحلقة. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها: فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأقربهم إلى السلطان ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة. أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا حكم له إلا إذا خرجوا للقتال؛ فعليه ترتيبهم فى مواقفهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه[2].

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رءوسهم الكلوتات[3] الصفراء بغير عمامة، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء ضيقة الأكمام من القطن البعلبكى — وفى بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء — ويشدّون على أوساطهم بنودا من القطن[4].

أما عن الأسلحة التى كانوا يستعملونها فى حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والنشاب. وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر فى حروبه ضدّ الصليبيين والتتار، نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاطيع التى كان يهدم بها أسوار القلاع التى يستولى عليها[5].

(١) المقريزى: خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥

(٣) وهى أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة.

(٤) المقريزى: خطط ج ٢ ص ٩٨

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

ولم تكن هناك مرتبات ثابتة لهؤلاء الأمراء والأجناد، بل آستعيض عن ذلك بأقطاعات كان يمنحها السلطان لهم . وكان المقطع منهم يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدّة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيرا ما كان يكافئ أمراءه وجنوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه فى إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجاع الدين والى سرمين[1]، فإنه أعطى ابن الأوّل إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلمانه[2] .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشيء الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع؛ فهى هبة من السلطان، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء[3] .

البحرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حدّ اهتمامه بتكوين هذا الجيش، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسة الى انشاء أسطول قوى يستعين به فى صدّ أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر؛ فعمل على إعداد قوّة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها الى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الاشتغال فى الأسطول اذا دعت الضرورة الى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عارا يسب به الرجل، فاذا

(١) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩
(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١

قيل لرجل يا أسطولى[١] غضب غضبا شديدا . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم باعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر باعداد الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكونا من أربعين قطعة حربية سيره الى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ هـ ، غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها[٢] . ولما علم بذلك بيبرس شرع فى إنشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده[٣] .

وهكذا نجح بيبرس فى العمل على إعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه فى عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية ، فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتلائه سلطنة مصر (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ — ١٢٩٣ م] بانشاء أسطول قوى . ولما كملت عدته الستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار الى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا أقبل اليه الناس من كل حدب وصوب ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى[٤] والحراريق[٥]

---

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى انما أتى الى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التى حملت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتى فى أساطيل غالبا . فاذا قالوا للرجل يا اسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى فى الأساطيل .

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

(٤) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأنا وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف .

(٥) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفط ؛ ولهذا كانت تسمى حراقة نفط أو حراقة بارود .

والطرائد[1] واحدة بعد أخرى . وعلى كل من الشوانى برج وقلعة ؛ وتبارى الجند "وما منهم إلا من أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه"، ثم رجع السلطان فى عسكره الى القلعة، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح[2] .

ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت اليه مصر فى ذلك العصر من التقدّم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية ، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها، ولا سيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها .

٤ — الحضارة المادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة فى مصر، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلأت خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعدّ جيشا قويا يصدّ به غارات الصليبيين والمغول التى تطلبت منه أموالا كثيرة، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الاصلاحات فى أنحاء الديار المصرية، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التى ظهرت فى عهده بمظهر القوّة وفاقت غيرها من مدن العالم الاسلامى فى العظمة والعمران ؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملأى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون فى بحبوحة من العيش .

(ا) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأوّل من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور فى كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهى الجسور التى يعود نفعها على البلاد عامة ؛ ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج، وما بقى منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثانى فهو الجسور

---

(١) الطرائد هى سفن خاصة بحمل الخيول ؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا ، وربما وصلت الى ثمانين فرسا .

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

البلدية ؛ وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحى ، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر[١] .

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترع وتطهير الخلجان ؛ كما اهتم بانشاء القناطر ، فبنى قنطرة على بحر أبى المنجا[٢] بناحية بيسوس[٣] بمديرية القليوبية ، كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة[٤] ، فنمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها .

وكان يزرع بأرض مصر القمح ، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين ، كما كان يزرع بها أيضا الشعير والفول والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء الدواب) إذا ما أخذ النيل فى النقصان ؛ وكان يتراوح محصول الفدان الواحد بين أردبين وأربع ويبات . كذلك اشتهرت مصر فى ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن ، كما كثر بها زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتى (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرنب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت والموز والزهور : كالورد والبنفسج والنرجس والياسمين والليتوفر والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه[٥] .

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكر منها بساتين اللوق التى غنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان السلطان الصالح أيوب ، وبستان البورجى بالقرب من المقس . وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار[٦] .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ (٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه الترعة الى أيام الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودى فعرفت باسمه . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ (٣) قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط واسمها الحالى باسوس . على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤

(٦) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(ب) الصـــناعة — كذلك كان للصـناعة النصيب الأوفر من عناية بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها ؛ فإن الدولة المصرية فى ذلك الحين كانت فى حاجة إلى جيش قـوى يحمى حدود امبراطوريتها الواسـعة . وكان لابد من تموين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقيـة مراكز صناعة المنسوجات ؛ نخص بالذكر منهـا مدينتى تنيس ودمياط التى برز سكانهما فى عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال، كما اشتهرتا بحياكة الثياب المصنوعة من الكتان[1] .

وكان يصنع بتنيس قصب ملون تتخذ منه العمائم . أما دميـاط فقد برز أهلها فى صناعة القصب الأبيض، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضا نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليهـا أشعة الشمس، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار[2] . كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية[3] . ومن هـذه المراكز الصناعية كان السلطان يمدّ أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية وجميع لوازم التعبئة فكان لهـا أسواق بالقاهرة . وكثيرا ما كانت تزدحم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع آلات السلاح فى الوقت الذى يشن فيـه بيبرس الغـارة على أعدائه ببلاد الشام، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب[4] .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التى اشتهرت بها من عهـد بعيـد . ومن هـذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التى مهـر فى صناعتها أهـل دمياط

---

(١) القلقشندى : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ (٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ (٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٤

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٦٢٦

وكذلك صناعة السكر من القصب الذى كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلى مثل ملوى وسمهود وقفط. وكانت هذه الصناعة فى عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة، وقد بلغت أوجها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون. يحدّثنا المقريزى[1] أنه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصير القصب، كما كان بملوى عدّة أحجار. وكان يسكن بهذه المدينة فى عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل بلغت مساحة الأرض التى زرعوها قصب سكر ألفا وخمسمائة فدان فى العام. وقد أودع أصحاب هذه الأراضى فى مخازنهم اثنين وثلاثين ألف قنطار من محصول سنة ٧٣٨ هـ.

وكان الزجاج أيضا يصنع بمصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك. ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات[2] الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف. وعلى البدن كتابة حمراء نصها: "مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان". ويؤخذ من هذه الألقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذى قتل سنة ٦٩٣ هـ. وكذلك بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية، وعلى بدنها اسم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم[3].

وهناك صناعة أخرى عنى بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة فى مصر فى عصر المماليك وهى صناعة المعادن؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم. وليس أدل على ذلك من قاعة «البيسرية» التى بناها

(١) المقريزى: خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٢) المشكاوات: جمع مشكاة وهى المصباح. وقد ورد فى القرآن "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح". [سورة النور]

(٣) الهوارى: رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقريزى[١] أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ؛ وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب تزن ٣٨,٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك فى صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التى أرسلها بيبرس الى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتى كانت تشتمل على كثير من الأوانى الصينية[٢] .

كذلك اهتم المماليك بصناعة الأدوية . وان فى مارستان قلاوون الذى يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حيا لارتقاء هذه الصناعة فى هذا العصر . فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء فخما يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة ؛ وأعد به غرفا متسعة فرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء على السواء ، وجعل بها قسما خاصا بالنساء ، كما خصص الايوانات الأربعة للمرضى بالحمى ، وأفرد قاعة للمصابين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للمصابين بالدوسنتاريا ، كما أنشأ به معملا كيميائيا أعده بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية[٣] .

ومن الصناعات التى أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دورا لصناعتها بجزيرة الروضة وبثغرى الاسكندرية ودمياط[٤] . وكان يذهب بنفسه

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

الى دار الصناعة بالجزيرة و يتفقد أمورها ، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التجارة — ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الخصبة من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافى ، فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول فى عهد بيبرس الذى عنى منذ توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ، وعقد لذلك المعاهدات التجارية مع شارل صاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonso) أمير اشبيلية وجيمس ملك أرجونة[1] . غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره سنة ١٢٧٤ م بمنع تصدير المعادن وأدوات بناء السفن إليها . ويرجع السبب فى ذلك إلى القرار الذى أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ — ١٢٧٦ م) لأهالى مونپلييه (Montpellier) بمنع التجارة مع المسلمين[2] .

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلائق الودية ، التى أحكم أواصرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وأمبراطور القسطنطينية ، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه و بين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية . كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة وأنواع الببغاء[3] . وكان لذلك أثره فى استمرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، كما أرسل إليه حاكم جزيرة سيلان سفارة سنة ١٢٨٣ م ، ومعها كتاب تعذر على رجال

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age pp. 422. 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 37-38.

حاشيته قراءته[١] . وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية، وذكر له فى كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، كما بين له أن المصريين سيجدون فى جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند، وأخيرا طلب من السلطان أن يعين مندوبا له بعدن[٢] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم فى تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون، لأنه كان يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق. وكان كبيبرس رجلا إداريا بعيد النظر، فبذل جهدا كبيرا لجذب التجار إلى مصر، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم فى أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان[٣] .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية فى ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التى عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوربية والشرقية، وأيضا بسبب اتصال أوربا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم من المماليك أصحاب النفوذ المطلق فى سورية، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوربا عن طريق الاسكندرية ودمياط، ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسى فخليج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص، ثم تنتقل فى النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط[٤] .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها بيبرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضا حركة التجارة الداخليـة بمصر. فأصبحت أسواق القاهرة تموج بكبار التجار، كما كانت الحوانيت تضيق بالباعة فى بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التى كانت بالقاهرة فى ذلك العصر سوق الفرائين ويباع به الفراء على اختلاف أنواعه، وسوق الجملون الصغير وبه كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية، وسويقة أمير الجيوش[1] وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدّة حوانيت للرفائين والرسامين، وسوق الشرابشيين[2] وكان يباع به الخلع التى كان يمنحها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة، وسوق الحلاويين وكان من أبهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر، وكانوا فى ذلك العصر يتفننون فى صنعها على عدّة أشكال (وهى تشبه ما يصنع الآن فى معامل الحلوى فى المواسم والأعياد والموالد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها فى الأهمية ويباع بها الطرف والأمتعة والمأكولات .

(ء) موارد الدولة المالية — ولقد سار بيبرس على سياسة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها، فعين القاضى كمال الدين طاهر وكيلا لبيت المال[4] وكلفه بالعمل على صيانته والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

---

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجملون الصغير فكان بالقرب من باب النصر؛ وتقع سويقة أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بن حنا .

(٢) سمى بذلك نسبة الى الشرابيش التى كانت تباع به وهى أغطية للرأس مثلثة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة فى عهد الملك الظاهر تنحصر فيما يأتى[1] :

(١) الخـــراج — وكان يجبى على حسب غلة الأراضى . فكان أكثر خراج الوجه القبـلى عينا و يتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحا أو شـعيرا أو حمصا أو فـولا ما بين أردبين إلى ثلاثة ، وفى بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضـه نقدا . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

(٢) الزكـاة — وكانت تؤخذ على الأغنام التى كثيراً ما كان يملكها قبائل عربية وتركمانيـة ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

(٣) الجـــزية — وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون فى القاهرة ، وتتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرون درهما عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم فى خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

(٤) ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

(٥) ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التى تمر فى ثغور عيذاب والاسكندرية ودمياط . وبجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التى ترسو بها السفن على سواحل مصر فى طريقها إلى بلاد الشام .

(٦) المعادن التى تستخرج من المناجم المصرية — وأهمها معـدن الزمرد ويوجد بكثرة بالقرب من قوص — وكذلك معدن الشب بالواحات والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرون وأمناء من قبل السلطان ، وعليهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢ — ٤٦٣

(٧) التركات التى لا وارث لها . وكان يتولى الاشراف عليها فى حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها و إرساله إلى بيت المال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرون يقومون بارسال ما يتحصل منها إلى ديوان السلطان .

٥ — منشئات بيبرس

اتخذ بيبرس قلعة الجبل[١] مقرا لحكمه وسار على سياسة من سبقة من سلاطين مصر فى تجميل مدينة القاهرة وضواحيها، فأسس بها مدرسة زوّدها بالكتب التى تبحث فى سائر العلوم . وقد شرع فى بنائها سنة ٦٦٠ هـ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم[٢] . ووقف عليها أوقافا، وأمر بألا يستخدم فى عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها .

ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقرّاء للاجتماع بها ؛ فجلس أتباع المذهب الشافعى بالايوان القبلى والحنفية بالايوان البحرى وأهل الحديث بالايوان الشرقى والقرّاء بالايوان الغربى . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرّسا . وعند ما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل ثم مدّت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولما أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء

---

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد عهد ببنائها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى بهاء الدين قراقوش لتكون مركزا للحكومة وقلعة للجند . وتمت عمارتها فى عهد الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقرا لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢

(٢) وهى إحدى قاعات القصر الفاطمى الكبير الذى بناه جوهر للمعز لدين الله الفاطمى .

والصيف[1] ؛ ثم شرع فى سنة ٦٦٥ هـ فى بناء الجامع الظاهرى ، فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاى والصاحب فخر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية ؛ فوقع اختيارهم على مناخ[2] الجمال السلطانية ؛ فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال : " لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى " . ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقرر رأيه على أن يبنى الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه ، ثم شرع فى استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات .

ولما فرغ من إعداد معدّات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقرّاء وقال : " هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفا لله ؛ فإذا مت لا تدفنونى (كذا فى الأصل) هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه لله تعالى " .

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحدّ ؛ بل إنه عندما آستولى على يافا وهدم قلعتها ، شحن مركبا من رخامها وأخشابها إلى القاهرة ، وأمر بأن يبنى من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهرى . ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ هـ ، وعين له خطيبا حنفى المذهب ، وخلع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه . وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة[3] .

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين . وكانت صلاة الجمعة قد أبطلت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٩٠ أ .

(٢) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠

ابن درباس فى عهد السلطان صلاح الدين[١]. وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدمر الحلى، فراعه ما آل إليه هذا الجامع وتحدث مع الملك الظاهر فى مسألة إصلاحه، فأمده ببعض الأموال للانفاق عليه. وتبرع الحلى أيضا بأموال كثيرة لهذا الغرض، واستطاع بذلك أن يعمر الواهى من أركانه وسقوفه وجدرانه وآستجدّ به مقصورة ومنبرا.

وعند ما فرغ من ترميمه تناقش الناس فى هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء، وعارض قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى إقامة الصلاة به. فشكا الحلى ذلك إلى السلطان، فتحدث الأخير مع قاضى القضاة فى هذه المسألة فصمم على المنع. فما كان من الحلى إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به، وطلب من السلطان أن يحضر، فامتنع عن الحضور مالم يحضر قاضى القضاة[٢].

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ، وأدخلت عليه تعديلات أخرى، فأنشأ به الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرّسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدّثا يتلو الحديث النبوى وسبعة قرّاء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافا[٣].

ولم يكن هذا كل ماقام به بيبرس من ضروب الإصلاح؛ فقد بنى برجا بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع[٤] على الخليج المصرى، وأصلح ماتهدّم من كل من منارتى رشيد والإسكندرية، وجدّد سور الأخيرة، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة

(١) ذكر المقريزى: خطط ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٧٦؛ أن الخطبة كانت تقام فى جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقلد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن درباس وأن هذا القاضى لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الامام الشافعى وهو منع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى لاتساعه. (٢) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٦ — ٥٥٧

(٣) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤

(٤) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سباعا من الحجارة. المقريزى: خطط ج ٢ ص ١٤٦

من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر، واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسة سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدّتها إلى المدينة المنورة وأمهات مدن الشام . فقام بعدّة إصلاحات بالحرم النبوى ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس، وجدّد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل عامرا حتى هدمه تيمور لنك[1] سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة فى عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعا خاصا كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التى بنيت فى عهد الدولة الأيوبية، وكانت عبارة عن بناء مبنى على سمت القبلة وفى وسطه صحن كبير مربع، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لاتخرج عن كونها مسجدا .

ولما شرع بيبرس فى إنشاء الجامع الظاهرى استعمل فى بنائه لأول مرة مداميك[2] الحجر الأبيض والأحمر على التوالى، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة فى طرز واجهات أبنية قلاوون الذى ابتدأ يدخل فى أيامه على فن المعمار شىء من المحسنات الأجنبية[3] ؛ غير أن ابنه الناصر عند ما تولى سلطنة مصر شرع فى تطهير صناعة الأبنية العربية مما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره فى ارتقاء فن العمارة فى مصر[4] .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤ و ٦١٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١ (٢) أى طبقات من الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41.

(٤) مكس هرتس بك : لمحة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧ (تعريب على بك بهجت) .

٦ — الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية، فشيد لذلك المدارس وزودها بخيرة العلماء والفقهاء، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين، فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامى، فاستعادت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية، ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم: محيي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل.

ويمتاز ابن عبد الظاهر[1] بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه، وبرع فى نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ. ومن مؤلفاته كتاب "السيرة الظاهرية" ويشتمل على تاريخ الملك الظاهر بيبرس. وهو من المراجع الهامة التى يعتمد عليها فى استقصاء تاريخ هذا السلطان. وقد نقل عنه كل من النويرى فى كتابه نهاية الأرب ومفضل ابن أبى الفضائل فى كتابه "النهج السديد".

أما ابن خلكان[2] فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ بعد ما تلقى علومه فى حلب ودمشق. ومن مؤلفاته كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء

(١) ولد محيي الدين بالقاهرة فى ٩ من المحرم سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م). ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتبا لسره بديوان الانشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام، فتولى قراءة نسب الخليفة العباسى سنة ٦٦١ هـ. وكتب تفويض عهد السلطنة لولى عهده الملك السعيد فى سنة ٦٦٢ هـ، كما كلفه بالذهاب الى عكاء سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان. وظل فى منصبه طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل. Enc. Isl. art. Ibn abd al-Zahir.

(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) بمدينة إربل من أعمال الموصل وينتسب الى أسرة يحيى بن خالد البرمكى. وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شداد فى حلب ثم انتقل منها الى دمشق وأقام بها مدة. ولم يلبث أن قدم الى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ، فعين بها نائبا لقاضى القضاة يوسف ابن حسن السنجارى. ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضيا للقضاة بدمشق، ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التى أسسها الأمير فخر الدين استاداار الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ، وقضى بها سبع سنوات عاد بعدها الى منصبه الأول بدمشق ثم عزل منه سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م). وتوفى فى السنة التالية ٦٨١ هـ. Nicholson, a Literary History of the Arabs p. 448

الزمان"، وهو يحتوى على معلومات قيمة فى التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم.

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئا عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفى بعده بخمس سنوات، بخلاء ابن شاكر الكتبي فى فوات الوفيات فاستدرك ما فاته ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس.

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل[1] من منبت أجنبي عن مصر. فقد ولد بحماه وبها تعلم وتأدب، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ. ومن تآليفه "كتاب نخبة الفكر فى المنطق" و "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب". وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م). ويرجع السبب فى ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدة سنين. أما بقيته التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهى من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر اسمه التاريخ. ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التى وردت فى كتاب "مفرج الكروب" (ج ٢ ص ٤٢٥ ا) ونصها: "قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إملاء القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وستمائة، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصرا من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك إنه على كل شيء قدير وإليه المصير".

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ فى عصر الملك الظاهر كانت فى المحل الأول من عناية الكتاب، ولم يعن أحد منهم بدراسة العلوم النقلية كالجغرافية والفلسفة

(١) كان فى أول عهده مدرسا بحماه، ثم قدم الى القاهرة سنة ١٢٦١، فأرسله الملك الظاهر الى منفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين، فقضى هناك وقتا طويلا ألف فيه كتابه "نخبة الفكر فى المنطق". Enc. Isl. art Ibn Wasil.

والكيمياء والفلك . وقد يكون هـذا راجعا إلى أن الدراسة فى ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب فى هـذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلى الأول فى الرسائل التى كانت تحرر بديوان الإنشـاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء و إلى ولاته وعمـاله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيرا ، لأن تقيده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير ، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصـاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا فى عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء[1] . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه :

مَن منصـفى من معشـر كثروا علىّ وأكثروا
صادقتُهـم وأرى الخـرو ج من الصـداقة يَعْسـر
كالخط يسهـل فى السـطو ر ومحـوُه يتعـذّر
وإذا أردت كشطتـه لكنّ ذاك يؤثـر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيـبرس مجاهد بن أبى الربيـع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ[2] . وكان فاضلا أديبا . ومن شعره :

أعِد يا برقُ ذكرى أهل نجـدٍ فإن لك اليدَ البيضـاءَ عندى
أَشِيمُك بارقًا فيضـلُّ عقـلى فواعجَبَـا تُضل وأنتَ تهدى
بعثتُ مع النسـيم له سـلاما فمـا عُنـوا علىّ له بـرد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩

(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١

وهناك شاعر آخر عاش فى عصر بيبرس ، وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد ولد هـذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ ، ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة ، وفيها تعلم علوم العربية والأدب ، واشتغل بالكتابة والشعر ، وولى الكتابة فى الدواوين ، وتصرّف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشر بلبيس قصبة الشرقية فى ذلك الحين . ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدته المشهورة التى مطلعها (١) :

نَقَدْتُ طوائفَ المستخدمينا فلم أرَ فيهمُ رجلاً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثتُ فيهم مع التجريبِ من عمرى سنينا

ويمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع . ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأوّلها :

أمِن تذكرِ جيرانٍ بذى سَلَمٍ مَزَجْتَ دمعاً جرَى من مُقلة بدمِ
أم هَبَّت الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ (٢) وأومضَ البرقُ فى الظلماءِ من اضَمِ (٣)

ومن حكمها البديعة :

والنفس كالطفل إن تُهمله شبّ على حب الرَّضاع وان تَفْطِمْه ينفطِمِ
فاصرف هواها وحاذر أن تُولّيه إنّ الهوى ما تولى يُصْمِ (٤) أو يَصِمِ

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأوّلها :

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦
(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجلة والفرات .
(٣) واد يبتدئ من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .
(٤) أى ما تولى منه من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود اذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب .

كيف تَرْقى رُقيّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ
لم يُدانوك فى عُلاك وقدْ حا ... ل سنًا منك دونَهم وسناءُ[1]
انما مثّلوا صِفاتِك للنا ... سِ كما مثّل النجومَ الماءُ
أنت مصباحُ كل ضوء فما تصـ ... ـدُر الا عن ضوئك الأضواء

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيرى ، ولكنهم لم يشقوا له غبارا بل تأخروا عنه . ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقى بك فى قصيدته التى عارض بها البوصيرى وسماها " نهج البردة " يعتذر عن تأخره عن اللحاق بالبوصيرى :

المادحون وأربابُ الهوى تبعُ ... لصاحب البردةِ الفيحاء فى القِدم
مديحُه فيك حبٌّ خالصٌ وهوى ... وصادقُ الحب يملى صادقَ الكَلِم

وقد توفى البوصيرى بالأسكندرية سنة ٦٩٥ هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيرى تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية . وقد جدّد هذا المسجد فى أيام المغفور له سعيد باشا الأول والى مصر ونقشت البردة على جدرانه .

وهناك شعراء آخرون نظموا شعرا أشادوا فيه بذكر بيبرس فى الحفل الذى أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم : الأديب أبو الحسين الجزار ، والسراج الورّاق ، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب[2] :

ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبنى المدارسَ من بنَى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرتْ للظاهر الملك همةٌ ... بها اليومَ فى الدارين قد بلغَ المُنا
تجمّع فيها كلُّ حُسْنٍ مفرقٍ ... فراقت قُلوبا للأنام وأعينا

(١) السنا : النور . السناء : الرفعة .
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٩

ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيـ ـسة منهـا فى سرور وفى هَنـا
وما هى الا جَنَّـة الخلد أزلفت له فى غدٍ فاختـار تعجيلها هنـا

وقال السراج الورّاق :

مليـك له فى العـلم حبٌّ وأهـلُه فلله حبٌّ ليس فيـه مـلام
ولا تذكرنْ ملكا فبيبرسُ مالكٌ وكلُّ مليـكٍ فى يديه غلام
ولما بناها زَعزعت كل بَيْعـة متى لاح صبح فاستقر ظـلام
وقد برزتْ كالروض فى الحسن أنبأت بأن يديه فى النـوال غَمـام
ألم تر محـرابا كأن أزاهرا تفتّح عنهن الغـداة كمام[1]

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصَد الملوكُ حِماك والخلفـاءُ فافخـرْ بأن محلّك الجوزاء
أنتَ الذى أمراؤه بين الورى مثـلُ الملوك وجنـدُه أمراء
ملكٌ تزينت الممالكُ باسمـه وتجمّلت بمديحـه الفصحاء
وترفّعت لعـلاه خيرُ مدارس حلت بهـا العلمـاء والفضلاء
يبقى كما يبقى الزمان وملكه باقٍ له ولحاسـديه فنـاء
كم للفَرَنج وللتتـار ببـابه رسـلٌ مناها العفو والاعفـاء
وطريقـه لبلادهـم موطوءة وطريقهـم لبـلاده عذراء
دامت له الدنيـا ودام مخلدا ما أقبل الاصباح والامسـاء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر فى عهـد بيبرس، بل هناك أشعار أخرى نظمها محيي الدين بن عبد الظاهر :

فمن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار[2] :

يا مليـكَ الأرض بشرا لك قـد نلت الإرادة
إن عكار يقينـا هى عـكا وزيادة

(١) كمام : جمع كم، وهو غلاف الثمر. (٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ص ٥٦٦

ومن قوله أيضا عندما استولى الملك الظاهر على سيس (١) :

يا ويح سيس أصبحت نهبة كم عوق الجارى بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك يستوقف الماشى بها الماشية

وله غير ذلك قصيدة يهنئ فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه نجم الدين خضر (٢) وفيها يقول :

يامالك الدنيا ومن بعزمه الدين نُصر
هنئت بالعيد وما على الهناء اقتصر
لكنها بشارة لها الوجود مفتقر
تفرحة قد جمعت ما بين موسى والخضر

فأنت ترى مما أسلفنا لك من النظم الرائع أن الحالة الأدبية فى عصر بيبرس لم تكن متأخرة إلى الحدّ الذى يظن لأول وهلة . فإن كثيرا من مؤرخى الأدب يرمى هذا العصر بالجمود الشعرى ؛ ولكنا نرى فى بعض هذه القصائد والقطع روحا شعرية عالية وطلاوة ومعانى مبتكرة ، كما سنرى قصيدة أخرى رائعة من نظم محيى الدين بن عبد الظاهر فى رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك . وهى فى نظرنا لاتقل روعة عن غرر القصائد فى أزهى عصور الأدب . ولا شك أن هناك أشعارا أخرى ضائعة ربما كانت أعلى من هذه فى الجودة . والزمان كفيل بكشف النقاب عنها .

٧ — الحالة الاجتماعية

كان يقطن بمصر فى عهد بيبرس عدّة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد الأصليين ، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك .

---

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣٦
(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى المماليك الذين كانت تتكون منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، كما كان يسند إليهم أكبر مناصب الدولة . وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين والمصاهرة معهم (١) ، وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة .

وكان هؤلاء المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش ، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرماية . وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء ، كما مهر أيضا فى رمى السهام . وبلغ من عنايته بالرماية أنه أقام لها ميدانا (٢) خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمى والنضال ، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل لهم ولرجال حاشيته (٣) .

وبينما كان المماليك يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب . وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم . غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية ، فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء (٤) .

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 216.

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمى القبق . المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١١ وقد زاد على ذلك المقريزى فوصف لعب القبق بقوله " إنه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على إحكام الرمى " .

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 250-251

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 253.

اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ، وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران. فعندما قدم الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هـذه الأمور التى تفسخ عهدهم، ثم أمر بإحراقهم، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق، وأن يقدموا لبيت المـال خمسين ألف دينـار فى كل عام. فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريركهم دفع الأموال المطلوبة منهم، وتعهـدوا بألا يعودوا إلى فعل شىء من المنكرات وبألا يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة[1].

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر فى أوائل عهد الملك الظاهر، واتخذوا الإسلام دينا لهم وأقاموا فى دور بنيت لهم فى أراضى اللوق[2]. وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الاقطاعات. وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم، وتزايدت بذلك العمائر فى اللوق وبالجهات التى حوله[3].

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر فى ذلك العهد. وكان بعضهم جنودا فى جيش السلطان؛ وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب فى الحياة العامة. وإلى جانب هـذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويشتغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ فى البلاد.

هذا، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته. فألزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات فى أوقاتهـا ليكونوا قادة الشعب فى الأمور الدينية كما هم قادته فى الشئون السياسية؛ وأتى على ما كان بالبلد من منكرات، فمنع

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٥؛ مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) ذكر المقريزى: خطط ج ٢ ص ١١٧؛ أن اللوق كانت تطلق فى عهـده على الجهات التى تعرف اليوم بباب اللوق.

(٣) المقريزى: نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨

المسكرات وخرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشرا منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا فى شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء . ولا عجب فى ذلك فقد كان سنيا مغاليا فى مذهب السنة ، فمنع النساء من أن تتعمم وتتزيا بزى الرجال، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش فى عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفاسدهم (١) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٤٠ و ٦١٢